

النص السماعي: كَيْفَ تَعَلَّمْتُ الرَّسْمَ؟

كَيْفَ تَعَلَّمْتُ الرَّسْمَ؟

1- في نهاية 1931 وبداية العام التالي - وأنا يافع - بدأتُ أَرْسُمُ بِقَلَمِ الرَّصَاصِ، ثُمَّ الْأَلْوَانِ. في طريقي إلى الْمَدْرَسَةِ كُنْتُ أَرَى خَلِيقًا أَقَامَ بِجَانِبِ كُرْسِيِّ الْحِلَاقَةِ فِي دُكَّانِهِ مُسْنَدًا جَعَلَ عَلَيْهِ لَوْحَةً كَبِيرَةً، رَسَمَ عَلَيْهَا مُرَبَّعَاتٍ، وَرَاحَ مِنْ خِلَالِ الْمُرَبَّعَاتِ يَرْسُمُ خُطُوطًا بِالْقَلَمِ، ثُمَّ يُضِيفُ الْأَوْنَاءَ، عَلَى مَهَلٍ، وَبِعَيْنَايَةٍ. كُلَّمَا مَرَرْتُ بِهِ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، رَأَيْتُ الصُّورَةَ تَتَنَامَى فِي لَوْحَتِهِ. كُنْتُ أَقِفُ بِالْبَابِ وَأَتَفَرَّجُ عَلَيْهِ، وَيُشَجِّعُنِي عَلَى مُتَابَعَتِهِ. وَأَفْهَمَنِي أَنَّ اللُّوحَةَ هِيَ تَكْبِيرُ لِصُورَةِ فُوتُوغَرَفِيَّةٍ، بِحَجْمِ بَطَاقَةِ الْبَرِيدِ، لِرَجُلٍ وَزَوْجَتِهِ، خَطَّطَ عَلَيْهَا مُرَبَّعَاتٍ صَغِيرَةً، وَجَعَلَهَا عَلَى جَانِبٍ مِنَ اللُّوحَةِ يَنْقُلُ عَنْهَا، ثُمَّ يُدْخِلُ فِي اللُّوحَةِ الْأَلْوَانِ الرَّيِّيَّةَ الَّتِي يَزَيِّتُهَا، وَهِيَ زَاهِيَةٌ فَرِحَةٌ فِي مُعْظَمِهَا يَغْلِبُ فِيهَا الْأَلْوَانُ الْأَخْمَرُ وَالْأَزْرَقُ.

2- وهذا ما فَعَلْتُ أَنَا أَيْضًا، وَلَكِنْ بِقَلَمِ الرَّصَاصِ. كَانَ كِتَابُنَا الْمَدْرَسِيُّ لِمَادَّةِ التَّارِيخِ مِلِينًا بِصُورِ شَخْصِيَّاتٍ تَارِيخِيَّةٍ، جَعَلْتُ أَنْقُلُهَا مُكَبَّرَةً بِالْمُرَبَّعَاتِ، وَتَبَاهَيْتُ بِشَكْلِ خَاصٍّ بِتَكْبِيرِي لِصُورَةِ نَابُلْيُونَ؛ فَقَدْ جَعَلْتَنِي أَتَأَمَّلُ كَيْفَ تَتَشَكَّلُ الْعُيُونُ وَالشِّفَاهُ، فِي الصُّورِ كَمَا فِي الْوَاقِعِ، وَأَذْرَكْتُ صُعُوبَةَ رَسْمِ الْأُنُوفِ عَلَى نَحْوِ مُقْنِعٍ إِذَا قَابَلَنِي الْوَجْهُ بِتَمَامِهِ، وَأَصْعَبُ مِنْهَا رَسْمُ الْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ. فَكَزْتُ هَمِّي عَلَى مُحَاوَلَةِ إِتْقَانِ تَصْوِيرِهَا تَخْطِيطًا وَتَظْلِيلًا، وَجَعَلْتُ أَتَمَعَّنُ فِي عُيُونِ النَّاسِ وَشِفَاهِهِمْ، وَأَيْدِيهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ فِي حَالَاتِهَا، وَحَرَكَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَجَعَلْتُ أَرَى فِيهَا جَمَالًا رَاحَ يَشُدُّنِي بِأَزْدِيَادٍ. وَبِفُورَةٍ مِنَ الْحِمَاسِ. حِينَ نَظَرْتُ أُمِّي إِلَى بَعْضِ الصُّورِ الَّتِي رَسَمْتُهَا، قَالَتْ:

- سَأَعْطِيكَ قِرْشًا تَشْتَرِي بِهِ أَقْلَامًا مِلْوَنَةً شَرِيطَةً أَنْ تَرْسُمَ بِهَا بَيْتَنَا.

حَصَلْتُ عَلَى غُلْبَةٍ مِنْهَا، مَعَ رِيَشَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ. وَبَقِيَتِ الْأَلْوَانُ الْمَائِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَتِي فِي الرَّسْمِ إِلَى جَانِبِ قَلَمِ الرَّصَاصِ، إِلَى أَنْ ذَهَبْتُ لِلدِّرَاسَةِ فِي إِنْجَلْتِرَا، بَعْدَ ذَلِكَ بِسَبْعٍ أَوْ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ حَيْثُ عَلَّمْتُ نَفْسِي آخِرًا الرَّسْمَ بِالزَّيْتِ.

وَكَانَ الرَّسْمُ لِي بَابًا آخَرَ دَخَلْتُهُ إِلَى عَالِمٍ وَجَدْتُ فِيهِ مَلَاذًا لَا يَدُّ لِي مِنْهُ، وَوَسِيلَةً لِتَشَوَّاتٍ عَوَّضَتْ لِي عَنْ بُؤْسٍ كَثِيرٍ فِيمَا بَعْدُ، يَوْمَ أُغْلِقْتُ جُذْرَانُ الْبَيْتِ عَلَى مَنْ فِيهِ، وَأَنْسَدَّتِ الْمَنَافِذُ الَّتِي تَدْخُلُ مِنْهَا مَشَاهِدُ الْأَشْجَارِ الْمُحْمَلَةِ بِالْعَصَافِيرِ، وَرُؤَى الْجِبَالِ وَالْوُذْيَانِ الْمُتَضَاحِكَةِ فِي دُوبِ الشَّمْسِ.